كيف نستقبل رمضان

الشيخ ندا أبو أحمد

شبكة الألوكة
www.alukah.net

الشيخ ندا
أبو أحمد

كيف نستقبل رمضان؟

الشيخ/ندا أبو أحمد

تمهيد

إنَّ الحمدَ لله نحمدُه، ونستعينُه، ونستغفره، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا، ومن سيئات أعمالنا، مَن يهد اللهُ فلا مضل له، ومَن يضلل فلا هادي له، وأشهد أن لا إله إلا الله، وحده لا شريك له، وأشهد أنَّ محمدًا عبدهُ ورسولُه.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ اتَّقُواْ اللّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلاَ تَمُوتُنَّ إِلاَّ وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ﴾ (آل عمران: 102)

﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُواْ رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاء وَاتَّقُواْ اللّهَ الَّذِي تَسَاءلُونَ بِهِ وَالأَرْحَامَ إِنَّ اللّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا﴾ (النساء:1)

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا (70) يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَمَن يُطِعْ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا﴾ (الأحزاب:70،71)

أما بعد....

فإن أصدق الحديث كتاب الله ـ تعالى ـ، وخير الهدي، هدي محمد ﷺ، وشر الأمور محدثاتها، وكل محدثة بدعة، وكل بدعة ضلالة، وكل ضلالة في النار.

مقدمة:

مما لا شك فيه أن نعم الله علينا كثيرة تترا لا تُعد ولا تُحصى.

قال تعالى: ﴿وَآتَاكُم مِّن كُلِّ مَا سَأَلْتُمُوهُ وَإِن تَعُدُّوا نِعْمَتَ اللَّهِ لَا تُحْصُوهَا إِنَّ الْإِنسَانَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ﴾ (إبراهيم: 34)

ومن نعم الله علينا أن جعل لنا مواسم للطاعات تتنزل فيها الرحمات، وترفع فيها الدرجات، وتتضاعف فيها الحسنات، ويغفر فيها كثير من الذنوب والمعاصي والزلات، والسعيد من يغتنم هذه الأوقات، ويتعرض لهذه النفحات.

وهذا ما حثنا عليه النبيُّ ﷺ فقال:" افعلوا الخيرَ دهرَكم، وتعرضوا لنفحاتِ رحمة الله، فإن لله نفحاتٍ من رحمتِهِ، يصيبُ بها من يشاء من عباده، وسلوا الله أن يسترَ عوراتِكم، وأن يؤمن روعاتِكم ". (أخرجه ابن أبي الدنيا والطبراني من حديث أنس رضي الله عنه)

وعند الطبراني في الأوسط من حديث محمد بن مسلمة أن النبي ﷺ قال:" إن لربكم في أيام دهركم نفحاتٍ، فتعرضوا لها، لعل أحدكم أن يصيبه منها نفحةٌ لا يشقى بعدها أبدًا ". (الصحيحة:1890)

ومن أعظم النفحات الربانية على الأمة المحمدية: شهر رمضان، ففيه منحُ الرحمن، ونسائمُ القرآن، وروائحُ الجنان، فيه تطيبُ الأفواهُ، وتطهرُ الألسنة، وتُصان الفروجُ، وتمنع الآثام، فهو جُنة من الزلل، ووقاية من المعاصي، وحصن من السيئات، لا يخيب فيه سائل، أو يُطرد عنه محروم، عطاؤه كثير، وفيضه عميم، توج بليلة القدر، وتشرف بنزول القرآن، وبورك بنزول الملائكة، ورُفعت فيه راية الموحدين، فقد تم فيه نصر بدر، وفيه تم فتح مكة، فكان هو الفوز في البدء والختام والفرح بالسيادة والإيمان. فالحمد لله لما أولانا فيه من النعيم، وحبانا فيه من الرحمات والطيبات.

وفي شهر رمضانَ تسمو الأخلاق، وتزكو فيه النفوس، وتحيا فيه القلوب، ويسارع فيه المؤمنون إلى مرضاة رب العالمين.

وشهرُ رمضانَ هو شهر المنافسة في الخيرات، والتسابق إلى الأعمال الصالحات، والتقرب إلى رب الأرض والسماوات.

وفي شهر رمضان تفوح روائح الإيمان، وتستنشق عبير الجنان، وفيه تعلو الهمم، وتتسابق النفوس إلى طاعة الرحمن، ويعلو فيها الإيمان، والمؤمن في هذه المواسم تجده حيي القلب، كثير الذكر والفكر، يستشعر حلاوة الإيمان في قلبه، ويجد قوة في جسده.

وشهرُ رمضانَ هو شهر المنافسة في الخيرات، وعمل الصالحات، والتسابق إلى الجنات، والتقرب إلى رب الأرض والسماوات، فطوبى من أجاب فأصاب، وويل لمن صرف عن الباب.

وشهرُ رمضانَ نسائم الخيرات فيه قد انتشرت، وبشائر البركات فيه قد أقبلت، ومواسم العطايا والمنح فيه قد أظلت.

وشهرُ رمضانَ هو شهر تشبع فيه الأرواح وإن جاعت البطون، وتقوى فيه القلوب وإن ضعفت الأجسام، وتسمو فيه النفوس، وتعلو فيه الهمم، وتخبو فيه الشهوات.

وشهرُ رمضانَ جنة ووقاية من كل ما يوقع في الموبقة والعماية، وسترة من المعاصي والخطايا.

وشهرُ رمضانَ فيه لحظات الصفاء والإشراق والهناء والوفاق.

وشهرُ رمضانَ هو المنهل الصافي، والبلسم الشافي.

وشهرُ رمضانَ يجرد الناس من سرابيل الخنا، ويحررهم من آصار الشقاء والعناء ويستل من صدورهم السخائم والأضغان، وينشر بينهم الألفة ويطوي عنهم الشنآن.

وشهرُ رمضانَ تعلو فيه الهمم وتتسابق النفوس، ويزداد فيه الإيمان، ويعلو الإنسان بروحه إلى عنان السماء، فهو منحة من رب العالمين لعباده الموحدين.

وشهرُ رمضانَ المؤمن فيه حيي القلب كثير الذكر والشكر، يجد حلاوة في الطاعة، وقوة في الجسد.

وشهر رمضان فرصة عظيمة، ومناسبة كريمة، تصفو فيها النفوس، وتهفو إليها الأرواح، وتكثر فيها دواعي الخير، ففيه تهجد وتراويح، وذكر وتسبيح، وفيه تلاوة وصلوات، وجود وصدقات، وأذكار ودعوات، وضراعة وابتهالات، وفيه ذنوب مغفورة، وعيوب مستورة، وأجور مضاعفة.

وشهُر رمضانَ هو فرحة للمؤمنين، وبهجة قلوب الموحدين، وفرج التائبين، وواحة الذاكرين، وغنيمة للصادقين، وتذكرة للغافلين، وراحة للقلب الحزين، وقرة عين الموحدين، ومضمار

المتسابقين إلى جنة رب العالمين، وغير ذلك من الجوائز والمنح الربانية، والتي وهبها رب البرية للأمة المحمدية في هذا الشهر العظيم الكريم المبارك، فهنيئًا لمن اغتنم هذه الأوقات، وتعرض لهذه النفحات.

فمن أين يشبه هذا الزمان زمان؟! فإن ليالي وأيام رمضان ليست كسائر الليالي والأيام، وشهر رمضان ليس كسائر شهور العام، فهو تاج على رأس الزمان.

فهو شهرٌ.... أنزل الله فيه القرآن هدى للناس وبينات من الهدى والفرقان.

شهرٌ.... من صامه إيمانًا واحتسابًا غفر له ما تقدم من ذنبه.

شهرٌ.... من قامه إيمانًا واحتسابًا غفر له ما تقدم من ذنبه.

شهرٌ.... فيه ليلة خير من ألف شهر من قامها إيمانًا واحتسابًا غفر له ما تقدم من ذنبه.

شهرٌ.... تفتح فيه أبواب الجنان فلا يغلق منها باب.

شهرٌ.... تغلق فيه أبواب النيران فلا يفتح منها باب.

شهرٌ.... تصفد فيه الشياطين ومردة الجان.

شهرٌ.... من أتى فيه بعمرة كان كمن حج مع النبي ﷺ.

شهرٌ.... من فطر فيه صائمًا كان له مثل أجره.

شهر.... لله فيه عتقاء من النار وذلك في كل ليلة.

فهو شهرٌ مبارك كريم، وموسم رابح عظيم، تنهمر فيه الرحمات من رب البريات، فتتضاعف فيه الحسنات، وتُرفع فيه الدرجات، وتُقال فيه العثرات، وتُغفر فيه الذنوب والمعاصي والسيئات.

فلهذا ولغيره كان النبي ﷺ يبشر أصحابه بقدوم شهر رمضان.

فقد أخرج الإمام أحمد والنسائي واللفظ له من حديث أبي هريرة ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ يبشر أصحابه: قدْ جاءَكمْ شهرُ رمضانَ، شهرٌ مباركٌ، افترضَ اللهُ عليكُمْ صيامَهُ، يفتحُ فيهِ أبوابُ الجنةِ، ويغلقُ فيهِ أبوابُ الجحيمِ[1]، وتغلُّ فيهِ الشياطينُ، فيهِ ليلةٌ خيرٌ مِنْ ألفِ شهرٍ، مَنْ حُرِمَ خيرَها فقدْ حرِمَ".

1- تُفتَّحُ فيه أبوابُ الجنَّةِ، وتُغلَقُ فيه أبوابُ الجَحيمِ: والفَتحُ والغَلْقُ المَذْكورانِ هُما على الحَقيقةِ؛ إكْرامًا مِن اللهِ لِعبادِهِ في هذا الشَّهرِ، وقيل: إنَّ غَلْقَ أبوابِ النَّارِ مَعناهُ مَزيدٌ لِغَلْقِ كلِّ مَسلَكٍ مِن مَسالِكِ الشَّرِّ، وإنَّ فَتْحَ أبوابِ الجنَّةِ هو مَزيدٌ لفَتْحِ كلِّ مَسلَكٍ مِن مَسالِكِ الخيرِ.

– وفي رواية: أتاكم شهرُ رمضانَ، شهرٌ مبارَكٌ، فرض اللهُ عليكم صيامَه، تفتحُ فيه أبوابُ الجنَّةِ، وتُغلَق فيه أبوابُ الجحيم، وتُغَلُّ فيه مَرَدَةُ الشياطينِ[1]، وفيه ليلةٌ هي خيرٌ من ألف شهرٍ، من حُرِمَ خيرَها فقد حُرِمَ ". (صحيح الجامع:55)

قال ابن رجب الحنبلي–رحمه الله– في" كتابه لطائف المعارف":" قال بعض العلماء: هذا الحديث أصل في تهنئة الناس بعضهم بعضاً بشهر رمضان، كيف لا يبشر المؤمن بفتح أبواب الجنان، وكيف لا يبشر المذنب بغلق أبواب النيران، وكيف لا يبشر العاقل بوقت تغل فيه الشياطين، فمن أين يشبه هذا الزمان زمان ". اهـ

يا شهر رمضان! رأينا هلالك فهتفت أرواحنا قبل ألسنتنا: اللهم أهلّه علينا باليُمن والإيمان، والسَّلامة والإسلام[2]. يا شهر رمضان! هلالك في السماء لكن نورك يملأ الأرض، ليبدد الظلام عن قلوب ملأتها الغفلة، ويزيل السحب عن عقول أسكرتها الشهوة، فيستيقظ القلب من سُبات، ويحيا من موات، فمرحبًا بشهر المغفرة والرضوان والعتق من النيران.

أحبتي في الله... عندما يأتي شهر رمضان يشمر الناسُ عن ساعد الجد، لينجوَ كلٌ منهم بنفسه، ويزرع في يومه ما يلقاه غدا في قبره، وبين يدي ربه.

ولله در القائل:

من فاته الزرعُ فــي وقت البـــدارِ فما تراه يحصد إلا الهم والندما
طوبى لمن كانت التقوى بضاعته فــي شهرِهِ وبحبل الله معتصما

فالحمد لله أن منَّ علينا بنعمة الحياة وأطال في الأعمار حتى أدركنا هذه الأوقات المباركات؛ لنتزود فيها الأعمال الصالحات، ليوم لا تنفع فيه الحسرات، فبلوغ رمضان نعمة عظيمة، ومنحة جليلة، فكم غَيّب الموتُ من صاحب، ووارى الثرى من حبيب.

فكُل من مَنَّ اللهُ عليه بنعمة الحياة حتى أدرك رمضان فليسجد لله شكرًا، وليحمده على هذه النعمة فهي نعمة لا يعرف قدرها إلا من وقف على هذا الحديث:

1– وتُغلُّ فيه مَرَدَةُ الشياطينِ: أي: تُشَدُّ الأغلالُ والسَّلاسِلُ على مَرَدَةِ الجِنّ، وهم رُؤساءُ الشَّياطينِ المتجرّدونَ للشَّرّ، أو هُمُ العُتاةُ الشِّدادُ مِن الجِنّ، والحِكمةُ من تَغْليلِهم حتَّى لا يَعمَلوا بالوَساوِسِ للصَّائِمينَ ويُفسِدوا عليهم صَوْمَهُم.

2– وفيه حديث لكن لا يخلو من مقال، فلا مانع أن يقال على سبيل الدعاء، ولكن لا ينسب للنبي ﷺ.

حديث أخرجه ابن ماجه بسند صحيح من حديث طلحة بن عبيد الله ﷺ:" أَنَّ رَجُلَيْنِ مِنْ بَلِيٍّ قَدِمَا عَلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ وَكَانَ إِسْلَامُهُمَا جَمِيعًا، فَكَانَ أَحَدُهُمَا أَشَدَّ اجْتِهَادًا مِنَ الْآخَرِ، فَغَزَا الْمُجْتَهِدُ مِنْهُمَا فَاسْتُشْهِدَ، ثُمَّ مَكَثَ الْآخَرُ بَعْدَهُ سَنَةً ثُمَّ تُوُفِّيَ، قَالَ طَلْحَةُ: فَرَأَيْتُ فِي الْمَنَامِ بَيْنَا أَنَا عِنْدَ بَابِ الْجَنَّةِ إِذَا أَنَا بِهِمَا، فَخَرَجَ خَارِجٌ مِنَ الْجَنَّةِ، فَأَذِنَ لِلَّذِي تُوُفِّيَ الْآخِرَ مِنْهُمَا، ثُمَّ خَرَجَ فَأَذِنَ لِلَّذِي اسْتُشْهِدَ، ثُمَّ رَجَعَ إِلَيَّ، فَقَالَ: ارْجِعْ فَإِنَّكَ لَمْ يَأْنِ لَكَ بَعْدُ، فَأَصْبَحَ طَلْحَةُ يُحَدِّثُ بِهِ النَّاسَ فَعَجِبُوا لِذَلِكَ، فَبَلَغَ ذَلِكَ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ وَحَدَّثُوهُ الْحَدِيثَ، فَقَالَ:" مِنْ أَيِّ ذَلِكَ تَعْجَبُونَ"! فَقَالُوا: يَا رَسُولَ اللَّهِ! هَذَا كَانَ أَشَدَّ الرَّجُلَيْنِ اجْتِهَادًا ثُمَّ اسْتُشْهِدَ، وَدَخَلَ هَذَا الْآخِرُ الْجَنَّةَ قَبْلَهُ؟ فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: أَلَيْسَ قَدْ مَكَثَ هَذَا بَعْدَهُ سَنَةً "، قَالُوا: بَلَى، قَالَ:" وَأَدْرَكَ رَمَضَانَ، وَصَلَّى كَذَا وَكَذَا مِنْ سَجْدَةٍ فِي السَّنَةِ؟".

– وفي رواية عند الإمام أحمد والبيهقي بلفظ:" أَلَيْسَ قَدْ صَامَ بَعْدَهُ رَمَضَانَ وَصَلَّى سِتَّةَ آلَافِ رَكْعَةٍ، أَوْ كَذَا وَكَذَا رَكْعَةً لصَلَاةَ السَّنَةِ"، قَالُوا: بَلَى، قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ:" فَمَا بَيْنَهُمَا أَبْعَدُ مِمَّا بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ". (السلسلة الصحيحة: 2591)

الله أكبر... لو ظل الإنسان منا ساجدًا لله تعالى إلى أن يلقاه لم يوفِّ شكر هذه النعمة، فلنحمد الله جميعًا على أن منَّ علينا بنعمة الحياة حتى أدركنا رمضان، وزيد لنا عددٌ من الركعات كتبت في السجلات، وفي ميزان الحسنات، إنها منَّةٌ عظيمة، ومنحة جليلة.

لذلك كان السلف الصالح يدعون الله تعالى ستة أشهر أن يبلغهم رمضان، فإذا مَنَّ الله عليهم بنعمة الحياة فأدركوا رمضان ثم انسلخ عنهم، يدعون الله ستة أشهر أن يتقبل منهم.

قال معلى بن الفضل–رحمه الله–: كانوا يدعون الله ستة أشهر أن يبلغهم رمضان، ثم يدعونه ستة أشهر أن يتقبل منهم، فالسنة كلها عندهم رمضان.

وقال يحيى بن أبي كثير–رحمه الله–: كان من دعائهم اللهم سلمني إلى رمضان وسلم لي رمضان وتسلمه مني متقبلا.

يُروى عن عليٍّ ﷺ أنه مرَّ بالمقابر فوقف عليها، فقال:" السلام عليكم أهل الديار الموحشة، والمحالِّ المقفرة! أنتم لنا سلفٌ، ونحن لكم تبعٌ، وبكم عمَّا قليل لاحقون، اللَّهمَّ اغفر لنا ولهم، وتجاوز عنَّا وعنهم، طوبى لمن ذكر المعاد، وعمل للحساب، وقنع بالكفاف، ورضي في جميع أحواله عن الله تعالى! ثم قال: يا أهل القبور! حدثونا أخباركم ونحدثكم أخبارنا، ثم قال: أما

أخبارنا فإن نسائكم قد تزوجت، وأن أموالكم قد قُسمت، وأن أولادكم قد حشروا في زمرة اليتامى والمساكين، وأن ما شيدتموه وبنيتموه قد سكنه غيركم، فما هي أخباركم؟ ثم أطرق ساعة فقال: كأني بكم لو تكلمتم لقلتم: قد تخرقت الأكفان، وبليت الأجساد، وسالت الحدق على الوجنات، وامتلأت الأفواه بالصديد، ورتع الدود والهوام في هذه الأجساد النضرة، وكأني بكم لو تكلمتم لقلتم، وتزودوا فإن خير الزاد التقوى[1] ".

فها هو شهر رمضان المبارك قد جاءنا وفتح لنا أبوابه، لندخل هذه المدرسة والتي تفتح أبوابها في كل عام شهرًا، لنتخرج منها بشهادة المتقين، كما أخبر بهذا رب العالمين في كتابه الكريم فقال: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ (البقرة: 183)

فتقوى الله عز وجل هي مقصود العبادات، كما قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ (البقرة: 21)

وتقوى الله هي الغاية التي تتطلع إليها أرواح المؤمنين، لذلك جعل الله الصيام وسيلة لتحصيلها، لأنها تجمع كل خصال خير، وعلى قدر التقوى في القلوب يكون قرب العبد أو بعده عن الله عز وجل.

قال تعالى: ﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ﴾ (سورة الحجرات: 13)

وشهر رمضان ما جاء إلا ليقرب الناس من ربهم ويزيد من صلتهم به سبحانه وتعالى، ويقطع عن قلوبهم صلتها بالدنيا، فهو يزود القلوب بخير زاد، كما قال تعالى: ﴿وَتَزَوَّدُوا فَإِنَّ خَيْرَ الزَّادِ التَّقْوَى وَاتَّقُونِ يَا أُولِي الْأَلْبَابِ﴾ (سورة البقرة:197) فالزاد الحقيقي المستمر نفعه لصاحبه، في دنياه، وأخراه، فهو زاد التقوى الذي هو زاد إلى دار القرار، وهو الموصل لأكمل لذة، وأجل نعيم دائم أبدا، ومن ترك هذا الزاد، فهو المنقطع به الذي هو عرضة لكل شر، وممنوع من الوصول إلى دار المتقين. فهذا مدح للتقوى. ثم أمر بها أولي الألباب فقال: ﴿وَاتَّقُونِ يَا أُولِي الْأَلْبَابِ﴾ أي: يا أهل العقول الرزينة، اتقوا ربكم الذي تقواه أعظم ما تأمر به العقول، وتركها دليل على الجهل، وفساد الرأي. (تفسير السعدي–رحمه الله–)

1– ذكره الحافظ عبد الحقّ الإشبيليُّ رحمه الله في" كتابه العاقبة في ذكر الموت ص: ١٩٦" بلفظ مختلف، وهو أثر مشهور وفي القلب منه شيء.

والتقوى هي: أن تجعل بينك وبين عذاب الله وقاية باتباع أوامره، واجتناب نواهيه.

وهنا أتوجه بكلمة للذين لا يعرفون شرف هذا الزمان:

أعلم أخي الحبيب أن إدراك رمضان من أفضل وأجلّ النعم، فكم غيب الموت من صاحب، ووارى من حبيب، وكم اكتظت الأَسِرة بالمرضى الذين تنفطر قلوبهم وأكبادهم، ويبكون دمًا بدلًا من الدموع لأنهم عاجزون عن الصيام والقيام، فهم يتمنون أن يصوموا حتى ولو يومًا واحدًا من أيام رمضان، أو يقوموا ليلة من لياليه، لكن حيل بينهم وبين ما يشتهون، وهناك من أعطاه الله الصحة والفراغ ولكنه يضيع جلّ الأوقات وأنفس الساعات فيما لا يعود عليه إلا بالحسرة يوم القيامة.

وصدق القائل حيث قال:

اغتنم في الفراغ فضلَ ركوعٍ فعسى أنْ يكونَ موتُك بغتة

كم صحيحٍ رأيتُ مِن غير سُقمٍ ذهبتْ نفسُه الصحيحةُ فلتة

وكان النبي ﷺ يوصي أن يغتنم الإنسان فرصة الحياة ليتزود من الأعمال الصالحة.

فقد أخرج الحاكم من حديث عبد الله بن عباس–رضي الله عنهما– قال: قال رسولُ اللهِ ﷺ لرجلٍ وهو يَعِظُه:" اغْتَنِمْ خَمْسًا قبلَ خَمْسٍ: شَبابَكَ قبلَ هِرَمِكَ، وصِحَّتَكَ قبلَ سَقَمِكَ، وغِناكَ قبلَ فَقْرِكَ، وفَرَاغَكَ قبلَ شُغْلِكَ، وحَياتَكَ قبلَ مَوْتِكَ ".(صحيح الترغيب: 3355) (صحيح الجامع:1077)

قال أبو العتاهية:

تَفَكَّـر قَبـلَ أَن تَنـدَم فَإِنَّـكَ مَـيِّتٌ فَاعـلَم

وَلا تَـغتَرَّ بِالدُنيـا فَـإِنَّ صَحيحَها يَسقَم

وَإِنَّ جَديـدَها يَبلى وَإِنَّ شَبـابَهـا يَهـرَم

وَما لِلمَـرءِ إِلّا مـا نَوى في الخَيرِ أَو قَدَّم

قال ابن الجوزي–رحمه الله–:" يا عجبا كيف أنس بالدنيا مفارقها، وأمن النار واردها، كيف يغفل من لا يغفل عنه، كيف يفرح بالدنيا من يومه يهدم شهره، وشهره يهدم سنته، وسنته تهدم عمره، كيف يلهو من يقوده عمره إلى أجله، وحياته إلى موته ".

فالكل سيموت إلا ذي العزة والجبروت، وسنقف جميعًا بين يدي الله تعالى وسيسألنا عما قدمنا في هذه الحياة الدنيا، سنسأل عن الصغير والكبير، والنقير والقطمير.

وقد أخرج الترمذي من حديث عبد الله بْنِ مَسْعُودٍ ﷺ عَنْ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ:" لَا تَزُولُ قَدَمُ ابْنِ آدَمَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مِنْ عِنْدِ رَبِّهِ حَتَّى يُسْأَلَ عَنْ خَمْسٍ: عَنْ عُمُرِهِ فِيمَ أَفْنَاهُ، وَعَنْ شَبَابِهِ فِيمَ أَبْلَاهُ، وَمَالِهِ مِنْ أَيْنَ اكْتَسَبَهُ، وَفِيمَ أَنْفَقَهُ، وَمَاذَا عَمِلَ فِيمَا عَلِمَ ".

وكان السلف أحرص الناس على اغتنام الوقت، والاجتهاد في العبادة، ويتأسفون على كل لحظة ذهبت من غير طاعة.

يقول عبد الله بن مسعود ﷺ:" ما ندمتُ على شيءٍ كندَمِي على يومٍ غربَتْ شمسُه نقص فيه أجلي ولم يزد فيه عملي ".

دخل إبراهيم بن أدهم على بعض إخوانه يومًا وهو في سياق الموت، فجعل هذا الرجل يتنفس ويتأسف، فقال له إبراهيم بن أدهم:" على ماذا تتنفس وتتأسف؟ فقال:" ما تأسفي على البقاء في الدنيا، ولكن تأسفي على ليلة نمتها، وعلى يوم أفطرته، وعلى ساعة غفلت فيها عن ذكر الله ".

فليحرص كل منا على كل لحظة من لحظات حياته، ولا ينفقها إلا في طاعة الله، حتى لا يندم عليها يوم القيامة.

فقد أخرج البيهقي بسند فيه مقال عنْ عَائِشَةَ–رضي الله عنها– قَالَتْ: قَالَ رسول الله ﷺ:" مَا مِنْ سَاعَةٍ تَمُرُّ على ابنِ آدمَ لم يذكرِ اللهَ فيها إلا تحسَّرَ عليها يَوْمَ الْقِيَامَةِ ".

وإن كان الحديث ضعيفًا إلا أنه يشهد له الحديث الصحيح الذي أخرجه أبو داود والترمذي من حديث أبي هريرة ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ:" ما قعد قَومٌ مَقعَدًا لم يُذكَرِ اللهُ فيه، ولم يُصَلُّوا على النَّبيِّ ﷺ، إلَّا كان عليهم حَسْرةً يومَ القيامةِ، وإن دَخَلوا الجنَّةَ للثَّوابِ ". (صحيح الترغيب والترهيب: 1513)

فَبَادِرْ إلى الخَيْرَاتِ قَبْـلَ فَوَاتِـهَا وَخَالِفْ مُرَادَ النَّفْسِ قَبْلَ مَمَاتِهَا
سَتَبْكِيْ نُفُوسٌ في القِيَامَةِ حَسْرَةً عَلى فَـوْتِ أَوْقَاتٍ زَمَـانَ حَيَاتِهَا
فَلاَ تَغْتَرِرْ بِالعِزِّ وَالمَالِ والمُنَى فَكَم قَـدْ بُلِيْنَا بانْقِـلاَبِ صِفَاتِـهَا

فعندما يموت الإنسان ويدخل القبر، لا يستطيع أن يزيد في حسناته حسنة واحدة، فهو لا إلى دنياه عائد ولا في حسناته زائد، وهنا يتمنى الإنسان أن لو عاد إلى الدنيا مرة أخرى ليستكثر من الزاد لهذا اليوم– يوم المعاد–.

وقد جاء في المعجم الأوسط للطبراني ومصنف ابن أبي شيبة بسند صحيح عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ ﷺ قَالَ: مَرَّ النَّبِيُّ ﷺ عَلَى قَبْرٍ دُفِنَ حَدِيثًا فَقَالَ:" رَكْعَتَانِ خَفِيفَتَانِ مِمَّا تَحْقِرُونَ وَتَنْفِلُونَ يَزِيدُهُمَا هَذَا فِي عَمَلِهِ، أَحَبُّ إِلَيْهِ مِنْ بَقِيَّةِ دُنْيَاكُمْ ". (صحيح الجامع: 3518)

فعندَما يَموتُ الإنسانُ يُدرِكُ قِيمةَ الأشياءِ على حقيقتِها، فيُدرِكُ أنَّ الأعمالَ الصالحةَ التي تَزيدُ ثوابَه خيرٌ له من مَتاعِ الدُّنيا كُلِّه.

فاعمل أيها المفرط، فأنت في أمنية كثير من الأموات.

آه لو اطْلَعَكَ اللهُ تعالى على الغيب! لسمعتَ من أهل القبور من يصرخ بأعلى صوته ويقول: ﴿رَبِّ ارْجِعُونِ لَعَلِّي أَعْمَلُ صَالِحًا فِيمَا تَرَكْتُ﴾ (المؤمنون:99، 100)

وآخر يقول: ﴿هَلْ إِلَىٰ مَرَدٍّ مِّن سَبِيلٍ﴾ (الشورى:44) أي: هل لنا طريق أو حيلة إلى رجوعنا إلى الدنيا، لنعمل غير الذي كنا نعمل. (تفسير السعدي)

وآخر يقول: ﴿لَوْ أَنَّ لِي كَرَّةً فَأَكُونَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ﴾ (لزمر:58) أي: رجعة إلى الدنيا فأكون مِنَ الْمُحْسِنِينَ.

وآخر يقول: ﴿رَبِّ لَوْلَا أَخَّرْتَنِي إِلَىٰ أَجَلٍ قَرِيبٍ فَأَصَّدَّقَ وَأَكُن مِّنَ الصَّالِحِينَ﴾ (المنافقون: 10)

وآخر يقول: ﴿يَا لَيْتَنِي قَدَّمْتُ لِحَيَاتِي﴾ (الفجر:24) أي: يَا لَيْتَنِي قَدَّمْتُ عملًا صالحًا لِحَيَاتِي الدائمة الباقية، وهي الحياة في دار النعيم.

يقول ابن رجب–رحمه الله–:" إن غاية أمنية الموتى في قبورهم حياة ساعة، يستدركون فيها ما فاتهم من توبة وعمل صالح، وأهل الدنيا يفرطون في حياتهم، فتذهب أعمارهم في الغفلة ضياعًا، ومنهم من يقطعها بالمعاصي". اهـ

فالأموات يتمنون حياة ساعة واحدة مما تعيشها أنت الآن، ليتوبوا إلى الله توبة نصوحا، أو يسجدوا بين يديه سجدة، أو يسبحوه تسبيحة، يرجون بها حسنة، أو يمحى عنهم بها خطيئة، لكن حيل بينهم وبين ما يشتهون، فهو لا إلى دنياه عائد، ولا في حسناته زائد.

أخي الحبيب... تخيل أنك قُبضت ونزل بك الموتُ، ثم جاءك رسولٌ من قِبل الله تعالى فقال لك: ماذا تشتهي؟ فما هي أقصى أمنية تتمناها في هذه اللحظة؟ والجواب بالطبع سيكون: أن أعود إلى الدنيا فأصلح الزاد ليوم الميعاد. فأقول لك أخي الحبيب: ها أنت في الأمنية فاعمل.

يُروى عن الحسن البصري–رحمه الله– أنه مرَّ بجنازة، وكان معه رجل مسرفٌ على نفسه، فقال له الحسن:" ترى ما أمنية هذا الميت؟ فقال الرجل: أن يعود إلى الدنيا ليتوبَ ويصلحَ الزاد ليوم الميعاد، فقال الحسن البصري: فكن هذا الرجل".

وقال إبراهيم التيمي–رحمه الله–:" مثَّلت نفسي في الجنة؛ آكُل ثمارها، وأشرب من أنهارها، وأُعانق أبكارها، ثم مثَّلت نفسي في النار؛ آكُل من زقومها، وأشرب من صديدها، وأُعالج سلاسلها وأغلالها؛ فقلت لنفسي: أيْ نفسي! أيُّ شيء تريدين؟ قالت: أريد أن أُردَّ إلى الدنيا؛ فأعمل صالحًا، قال: قلت: فأنتِ في الأمنية، فاعملي ". (محاسبة النفس، لابن أبي الدنيا:٢٦).

فاحمد الله تعالى أن منَّ عليك بنعمة الحياة لتنال شرف الوقوف بين يديه سبحانه وتعالى في هذه الأيام المباركات، وحتى تستدرك ما فات، وتصلح الزاد ليوم الميعاد.

واعلم أيها المفرط ... أن من رُحِمَ في رمضان فهو المرحوم، ومن حرم خيره فهو المحروم، ومن لم يتزود فيه لمعاده فهو ملوم.

أَتَى رَمَضَانُ مَزْرَعَــةُ العِبَادِ لِتَطْهِيرِ القُلُوبِ مِنَ الفَسَادِ
فَـأَدِّ حُقُوقَــهُ قَــوْلًا وَفِعْــلَا وَزَادَكَ فَــاتَّخِـذْهُ لِلْمَعَــادِ
فَمَنْ زَرَعَ الحُبُوبَ وَمَا سَقَاهَا تَأَوَّهَ نَــادِمًا يَــوْمَ الحَصَادِ

أيها المفرط المقصر الذي لا يعرف شرف هذا الزمان، قد كان معك في رمضان الماضي أُناس يتمتعون بالحياة كما تتمتع بها أنت الآن، قد صرعهم الموت، فصاروا إلى ظلمة القبر تحت الثرى، لا يستطيع أحدهم أن يزيد في حسناته حسنة واحدة، ومد الله في عمرك أنت حتى أدركت رمضان هذا، ومع هذا تفرط وتقصر ولم تتعظ. لكن اعلم بأنك ستموت وستلحق بمن سبقك، وستدخل قبرك، ساعتها لا أنت إلى دنياك عائد ولا في حسناتك زائد، وهنا تبدأ الحسرات والآهات، وطلب الرجوع بعد الممات، لكن هيهات هيهات.

فيا ذا الذي ما كفاهُ الذنبُ في رَجَـبٍ حتى عَصَى ربَّهُ في شهر شعبــانِ
لقــد أظَلَّكَ شهــرُ الصَّــومِ بَعْدَهُمَــا فلا تُصَيِّرْهُ أيْضًا شَهْـرَ عِصْيــانِ
واتْــلُ الْقُــرآنَ وَسَبِّحْ فيــه مجتَهِــدًا فَإنــه شهــرُ تسبيــحٍ وقُــرْآنِ

كمْ كنتَ تعرِف مِمّـنْ صَام في سَلَفٍ مِــنْ بين أهــلٍ وجِيــرانٍ وإخْــوَانِ
أفْنَاهُمُ المـوتُ واسْتَبْقَـاكَ بَعْـــدهمُ حَيًّا فَمَا أقْرَبَ القاصِي مــن الدانِي
(لطائف المعارف لابن رجب ص: **155**)

فاحذر أخي الحبيب أن تكون ممن دخل عليه رمضان ثم انقضى عنه الشهر، وما زال منكبًا على دنياه، معرضًا عن مولاه، متبعًا لهواه. هذا الصنف خاب وخسر، ورغم أنفه في التراب والطين، وخرج من رمضان ولم يغفر له رب العالمين.

فقد أخرج الترمذي والحاكم من حديث أبي هريرة ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ:" رَغِمَ أَنْفُ[1] رَجُلٍ ذُكِرْتُ عِنْدَهُ فَلَمْ يُصَلِّ عَلَيَّ، وَرَغِمَ أَنْفُ رَجُلٍ دَخَلَ عَلَيْهِ رَمَضَانُ فَانْسَلَخَ قَبْلَ أَنْ يُغْفَرَ لَهُ، وَرَغِمَ أَنْفُ رَجُلٍ أَدْرَكَ عِنْدَهُ أَبَوَاهُ الْكِبَرَ فَلَمْ يُدْخِلاهُ الْجَنَّةَ ". (صحيح الجامع: **3510**) (صحيح الترمذي: **3545**)

وأخرج ابن خزيمة وابن حبان عن جابر بن سمرة ﷺ قال: صعِد النَّبيُّ ﷺ المنبر، فقال: آمين، آمين، آمين، فلمَّا نزل سُئل عن ذلك، فقال: أتاني جبريلُ ﷺ، فقال: رغِم أنفُ امرئٍ أدرك رمضانَ فلم يُغفرْ له، قُلْ: آمين، فقلتُ: آمين، ورغِم أنفُ امرئٍ ذُكِرتَ عنده فلم يُصلِّ عليك، قُلْ: آمين، فقلتُ: آمين، ورغِم أنفُ رجلٍ أدرك والدَيْه أو أحدَهما فلم يُغفرْ له، قُلْ: آمين، فقلتُ: آمين ". (صحيح الترغيب: **996**)

قل لي بالله عليك؛ كيف سيكون حال هذا الرجل الذي دعا عليه سيد الملائكة جبريل ﷺ، وأَمَّنَ عليه سيد البشر ﷺ؟

قال المناوي–رحمه الله– في" فيض القدير:**34/4**": رغم أنف من علم أنه لو كفّ عن الشهوات شهرًا في كل سنة، وأتى بما وظِّفَ له فيه من صيام وقيام غفر له ما سلف من الذنوب فقصّر ولم يفعل حتى انسلخ الشهر ومضى، فمن وجد فرصة تعظيمه بأن قام فيه إيمانًا واحتسابًا عَظَّمَه الله، ومَنْ لم يعظمه (أي يعظم شهر رمضان) حقَّره الله وأهانه ". اهـ (وقاله الطيبي أيضًا في "الكاشف عن حقائق السنن")

1– رَغِمَ أَنْفُ: أي: لُصِقَ أَنْفُه بِالرَّغامِ، وهو التُّرابُ المختلِطُ بِالرَّملِ، والمرادُ به: الذُّلُّ والخزيُ، وكرَّرها ثلاثًا؛ زِيادةً في التَّنفيرِ والزَّجرِ عمَّا يُذكَرُ بعْدَه. (النهاية لابن الأثير).

فالمفرط في رمضان المضيّع لمغفرة الله فيه، مستحقٌّ لهذا الدعاء، وذلك لضعف دواعي الشرِّ فيه، ولزيادة دواعي الخير، فقد اجتمع فيه مِنْ فضلٍ وخير ما لم يجتمع في غيره من سائر الشهور والأيام، فهو شهرٌ مبارك كريم، وموسم رابح عظيم، تنهمر فيه الرحمات من رب البريات، فتتضاعف فيه الحسنات، وتُرفع فيه الدرجات، وتُقال العثرات، وتُغفر فيه الذنوب والمعاصي والسيئات. وهو شهرٌ من صامه إيمانًا واحتسابًا غفر له ما تقدم من ذنبه، شهرٌ من قامه إيمانًا واحتسابًا غفر له ما تقدم من ذنبه، شهرٌ فيه ليلة خير من ألف شهر من قامها إيمانًا واحتسابًا غفر له ما تقدم من ذنبه، شهرٌ تفتح فيه أبواب الجنان فلا يغلق منها باب، شهرٌ تغلق فيه أبواب النيران فلا يفتح منها باب، شهرٌ تصفد فيه الشياطين ومردة الجان، شهرٌ من أتى فيه بعمرة كان كمن حج مع النبي ﷺ، شهرٌ من فطر فيه صائمًا كان له مثل أجره، شهر يُنادي فيه منادٍ: يا باغي الخير أقبل، ويا باغي الشر أقصر، شهر لله فيه عتقاء من النار وذلك في كل ليلة.

ومِنْ ثم فالذين دخلوا شهر رمضان بالمعاصي وخرجوا بالمعاصي، ولم يورث هذا الشهر الطيب عندهم حرصا على الطاعات والعبادات، ولا إقلاعاً عن الذنوب والسيئات، فهؤلاء من الخاسرين المحرومين لأنهم لم يستفيدوا من رمضان.. فالخاسر حقاً هو مَنْ أدرك شهر رمضان ولم يتب فيه إلى الرحمن، ولم يحافظ ويسارع فيه إلى العبادات والخيرات. فإذا ما تُبنا في رمضان فمتى سنتوب؟

ومن لم يغفر له في رمضان فمتى؟ ومن لم يربح في هذا الشهر ففي أي شهر يربح؟ وإن لم تثمر الشجرة في أوانها، ففي أي وقت تثمر؟

إذا الرَّوْضُ أمْسى مُجْدِبًا في رَبيعِهِ فَفِي أيِّ حينٍ يَسْتَنيرُ ويَخْصُبُ؟

فالبدار البدار قبل مجيء هاذم اللذات، والحذار من يوم الندم والحسرات، عندما يقول المذنب: رب ارجعون، فيُقال له: فات.

إذا رمضانُ أتى مقبلاً فأقبِل فبالخير يُستقبلُ
لعلَّك تُخطِئــهُ قابــلاً وتأتي بعُذرٍ فلا يُقبَلُ
(لطائف المعارف لابن رجب)

أخي الحبيب... قف مع نفسك وقفة صدق:

وحاسب نفسك قبل أن تُناقش الحساب، وقل لها: يا نفس! إلى متى هذا التفريط والتضييع والتقصير، إلى متى مخالفة رب العالمين، ومتابعة الهوى والشيطان الرجيم؟

واعلم أن محاسبة النفس هي طريق السالكين إلى رب العالمين، وزاد المؤمنين في آخرتهم، ورأس مال الفائزين في دنياهم ومعادهم، فما نجى من نجى يوم القيامة إلا بمحاسبة النفس، ومخالفة الهوى، فمن حاسب نفسه قبل أن يُحاسب؛ خف يوم القيامة حسابه، وحضُر عند السؤال جوابُه، وحسُن منقلبه ومآبه، ومن لم يحاسب نفسه دامت حسراته، وطالت في عرصات يوم القيامة وقفاته، وقادته إلى الخزي والمقت سيئاتُه، ولقد حثنا رب العالمين في كتابه الكريم على محاسبة النفس. فقال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَلْتَنظُرْ نَفْسٌ مَّا قَدَّمَتْ لِغَدٍ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ (الحشر:18)

قال ابن كثير–رحمه الله– في تفسيره:342/4":" فقوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ﴾ أمر بتقواه وهو يشمل فعل ما به أمر وترك ما عنه زجر. وقوله تعالى: ﴿وَلْتَنظُرْ نَفْسٌ مَّا قَدَّمَتْ لِغَدٍ﴾ أي حاسبوا أنفسكم قبل أن تحاسبوا, وانظروا ماذا ادخرتم لأنفسكم من الأعمال الصالحة ليوم معادكم وعرضكم على ربكم ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ﴾ تأكيد ثان ﴿إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ أي اعلموا أنه عالم بجميع أعمالكم وأحوالكم, لا تخفى عليه منكم خافية ولا يغيب من أموركم جليل ولا حقير". اهـ

فالله تعالى يأمر المؤمنين بالتقوى، ويحثهم على مداومة طاعته، ويدعو كل مؤمنٍ إلى مراقبة نفسه، ومراجعة حسناته وسيئاته، عسى أن يتزوَّد المحسن من الطاعات، ويتدارك المسيء ما مضى وفات، ويعلم المُقصِّر أن أمامه يومًا يُحاسَب فيه، وربَّا هو ملاقيه فيجتهد ويجد ويعمل ويكد.

وكان عمر بن الخطابﷺ يقول:" حاسِبوا أنفسَكم قبل أن تُحاسَبوا، وزِنُوا أعمالكم قبل أن تُوزَنُوا، وتهيَّئوا للعرض الأكبر، يومئذ تعرضون لا تخفى منكم خافية ".

وقال ابن القيم–رحمه الله–:" فإذا كان العبد مسئولًا ومحاسبًا على كل شيء، حتى على سمعه وبصره وقلبه، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ السَّمْعَ والبَصَرَ والفُؤادَ كُلُّ أُولئِكَ كانَ عَنْهُ مَسْئُولا﴾ (الإسراء:36). فهو حقيق أن يحاسب نفسه قبل أن يناقش الحساب ". (إغاثة اللهفان:106/1)

كان الحسن البصري–رحمه الله–يقول:" إن العبد لا يزال بخير ما كان له واعظ من نفسه، وكانت المحاسبة من همته ".

وقال أيضا–رحمه الله–:" عند قوله تعالى: ﴿وَلَا أُقْسِمُ بِالنَّفْسِ اللَّوَّامَةِ﴾ (سورة القيامة:2) لا تلقى المؤمنَ إلا يعاتب نفسه ماذا أردت بكلمتي؟ ماذا أردت بأكلتي؟ ماذا أردت بشربتي؟ والعاجز يمضي قُدمًا ولا يعاتب نفسه ".

وقال أيضا–رحمه الله–:" المؤمن قَوَّام على نفسه، يحاسب نفسه لله عز وجل، وإنما خف الحساب يوم القيامة على قوم حاسبوا أنفسهم في الدنيا، وإنما شق الحساب يوم القيامة على قوم أخذوا هذا الأمر من غير محاسبة ".

وقال ميمون ابن مهران–رحمه الله–:" لا يكون الرجل تقيًا حتى يكون لنفسه أشد محاسبة من الشريك لشريكه ".

ويوضح لنا الغزالي في الإحياء:383/4:" حديثا مع النفس لهذه المشارطة والمحاسبة، فيقول–رحمه الله–:" يقول العبد لنفسه: ما لي بضاعةٌ إلا العُمُرُ، ومهما فَنِيَ فقد فني رأسُ المال ووقع اليأسُ عن التجارةِ وطلب الربحِ، وهذا اليوم الجديد قد أمهلني الله فيه وأنْسأَ في أجْلي وأنْعم عليَّ به، ولو توفَّاني لكنتُ أتمنى أن يُرْجعني إلى الدنيا يومًا واحدًا حتى أعملَ فيه صالحًا، فاحسبي أنك قد توفيتِ ثم قد رددتِ فإيَّاك ثم إياك أن تضيعي هذا اليوم، فلا تميلي إلى الكسلِ والدعة والاستراحة، فيفوتك من درجات عليين ما يدركه غيرك،

وتبقى عندك حسرة لا تفارقك وإن دخلت الجنة، فألم الغبن وحسرته لا يطاق، وقد قال بعضهم:" هب أن المسيء قد عُفِيَ عنه أليس قد فاته ثواب المحسنين" أشار به إلى الغبن والحسرة، وقد قال الله تعالى: ﴿يَوْمَ يَجْمَعُكُمْ لِيَوْمِ الْجَمْعِ ذَٰلِكَ يَوْمُ التَّغَابُنِ﴾ (التغابن:9)

وقال الغزالي–رحمه الله– أيضًا في" كتابه بداية الهداية":" وأوقاتُك عُمُرُك، وعُمُرُكَ رأس مالِك، وعليه تِجارتُك، وبه وُصولُك إلى نعيم الأبد في جوار الله تعالى، فكلُّ نَفَسٍ من أنفاسِكَ جَوْهَرٌ، فإذا فاتَ فلا عَودة له. فلا تَكُن كالحمقى الذين يفرحون في كلّ يوم بزيادة أموالهم مع نُقْصان أعمارِهم. فأيّ خير في مالٍ يزيدُ وعمرٍ ينقُص؟! فلا تفرح إلاّ بزيادة علمٍ أو عملٍ، فإنّهما رفيقاكَ يصحبَانِك في القبر، حيث يَتخَلَّفُ عنك أهلُك ومالُك وولدُك وأصدقاؤُك ".

فالمُفرِّط المُقصِّر عليه أن يقف مع نفسه وقفة صدق، ويقول لها:

يا نَفْسُ كُفِّي عَنِ العِصْيانِ واكْتَسِبِي فِعْــلاً جميـلاً لَعَــلَّ اللهَ يَرحَمُني

يَا نَفْسُ وَيْحَـكِ تُوبِي واعمَلِي حَسَناً عَسى تُجازَيْنَ بَعْدَ الموتِ بِالحَسَنِ

يا نفس .... كيـف بـك إذا جاءتك السكـرات وبلغـت الـروح منـك التـراق؟

كيف وقد صار إلى الله المساق، يا لهـف نفسي أم كيف بك إذا وقفت مع العباد يوم التلاق؛﴿يَوْمَ هُم بَارِزُونَ لَا يَخْفَىٰ عَلَى اللَّهِ مِنْهُمْ شَيْءٌ﴾ (غافر:16)

ليتني أعرف بأي رجل سأخطو إليه إذا نُوديت على رؤوس الأشهاد؟

وبأي بدن سأقف بين يديه يوم التناد؟ وبأي لسـان سأجيب عليه؟

ما حيلتي وقد حل القضاء وكيـف احتيالي إذا شهـدت الأعضاء؟

مـن سيلهمـني حجـتي؟ مـن سيـدافع عـني؟

قد تبرأ الأصحاب .... فلا أصحاب. وتقطعت الأسباب ... فلا أنساب.

الـدنيـا الغـرارة قد ولت عني، والشيطان الرجيم تبرأ مني.

كيـف لم أقـم لله حسـابـًا؟! ولم أخـش له عقابًا؟!

من لي إذا حجبت في ذلك اليوم عن ربي؟ فلم يزكني... ولم ينظر إليّ... ولم يكلمني.

من لي إذا نادى المنادي بمن عصى إلى أين التجائي؟ إلى أين أهرب؟

فيا طول حزني ثم يا طول حسرتي لئن كنت في قعر جـهنم أُعذب.

يَا نَفْسُ تُوبِي فَإِنَّ المَوْتَ قَـدْ حَانَـا وَاعْصِي الْهَوى فالْهَوى مَا زَالَ فَتَّانَا

أَمَا تَـرَيْنَ المَنَايَـا كَيْفَ تَلْقُطُنَـا لَقْطًـا فَتُلْحِـقُ أُخْـرَانَا بِأُوْلاَنَـا

فِي كُـلِ يَـوْمٍ لَنَـا مَـيْتٌ نُشَيِّعُـه نَـرَى بِمَصْرَعِهِ آثَـارَ مَوْتَانَـا

يَا نَفْسُ مَا لِي ولِلأَمْـوَالِ أَتْرُكُهَـا خَلْفِي وَأُخْـرَجُ مِن دُنْيَايَ عُرْيَانَـا

أَبَعْـدَ خَمْسِيْنَ قَـدْ قَضَيْتُهَا لَعِبًـا قَـد آنَ أَنْ تَقْصُرِي قَدْ آنَ قَدْ آنَـا

ما بَالُنَـا نَتَعَامَى عَـن مَصَائِـرِنَا نَنْسَى بِغَفْلَتِنَـا مَـن لَيْسَ يَنْسَانَا

نَزْدَادُ حِرْصًا وَهَـذَا الدهرُ يَزْجُرُنَـا كَأَنَّ زَاجِـرنَا بالحِـرصِ أَغْـرَانَا

أيْنَ المُلوكُ وَأَبْنَاءُ المُلُـوكِ وَمَـن كانَتْ تَـخِرُّ لَه الأَذْقَـانُ إِذْعَانَـا

صَاحَتْ بِهِم حَادِثَاتُ الدهرِ فانْقَلَبُوا مُسْتبْدِلِيْنَ مِــن الأَوْطَــانِ أَوْطَانَــا
خَلّــوَا مَدَائِــنَ كَانَ العِــزُ مَفْرَشَهَا واسْتُفْرِشُــوْا حُــفُرًا غُــبْرًا وَقِيْعَانَــا
يا رَاكضًا فِي مَيَادِينِ الهَوَى مَرِحًــا وَرَافِــلاً فِي ثِيَــابِ الغَيِّ نَشْوَانَــا
مَضَى الزمانُ وَوَلَّى العُمْرُ فِي لَعِبٍ يَكفيكَ مَا قَدْ مَضَى قَد كَانَ مَا كَانَا

ويحك يا نفس... تنشغلين بعمارة دنياك مع كثرة خطاياك كأنك غير مرتحلة عنها.

أما تنظرين إلى أهل القبور، كيف جمعوا كثيرًا؛ فأصبح جمعهم بورًا، وبنوا مشيدًا؛ فصار بنيانهم قبورًا، وأمَّلوا بعيدًا؛ فصار أملهم زورًا.

ويحك يا نفس... أما لك بهم عبرة، أما لك إليهم نظرة.

أتظنين أنهم دُعوا إلى الآخرة، وأنت من المخلدين.

ويحك يا نفس... هيهات... هيهات ساء ما تتوهمين

ما أنت إلا في هدم عمرك؛ منذ أن سقطت من بطن أمك.

ويحك يا نفس... تُعرضين عن الآخرة وهي مقبلة عليك، وتقبلين على الدنيا وهي فارة معرضة عنك.

فكم من مستقبلٍ يومًا لا يستكمله، وكم من مؤمل غدًا لا يبلغه.

ويحك يا نفس... ما أعظم جهلك! أما تعرفين أن بين يديك الجنة أو النار، وأنت سائرة إلى أحدهما.

فما لك تفرحين وتمرحين وباللهو تنشغلين؟! وأنت مطلوبة لهذا الأمر الجسيم، عساك اليوم أو غدًا بالموت تختطفين.

ويحك يا نفس... أراك ترين الموت بعيدًا والله يراه قريبًا، فما لك لا تستعدين للموت، وهو أقرب إليك من كل قريب، أما تتدبَّرين؟

يا نفس قد أزف الرحيل وأظلك الخطــب الجليل
فتــأهبي يـــا نفس لا يلعب بك الأمل الطويل
فلتنزلــن بمنــزلٍ ينسى الخليــل فيــه الخليـــل
ولــيركبن عليك فيـــه مــن الثرى ثقل ثقيـــل

يا نفس... كيف أنتِ مني غدًا وقد رأيتِ ركاب أهل الجنة يسعى نورهم بين أيديهم وبأيمانهم، كيف قد حيل بينك وبينهم؟ هل ينفع الندم؟ هل تغني الحسرات؟ هل ينفع طلب الرجوع بعد الممات؟

يا نفس... انظري واعتبري بمن سكن القبور بعد القصور، واعلمي أن الفرصة واحدة لا تتكرر، فإذا جاءت السكرة فلا رجعة ولا عودة، فأنت في دار المهلة، فاعملي قبل النقلة، قبل أن تقولي: ﴿رَبِّ ارْجِعُونِ(99) لَعَلِّي أَعْمَلُ صَالِحًا فِيمَا تَرَكْتُ ﴾ (المؤمنون:99،100) فيقال لكِ: فات.

يا نفس... هي جنة أو نار..... فوز أو خسار..... نعيم أو جحيم..... سعادة أو عذاب.

لكن يبقى هنا سؤال... هل انتهى بي الأمل؟ هل كُتب عليّ أن أُجازى بسوء العمل.

لا. وربي، بل لا يزال في العمر فسحة، وباب التوبة مفتوح، فدعيني يا نفس أبادر يومي بعدما فرطت في أمسي، دعيني قبل أن تغيب عن هذه الدنيا شمسي، دعيني فإنه لا ملجأ من الله إلا إليه، فها هو شهر التوبة والأوبة جاء لتحيا هذه القلوب التي طالما قست، ولتدمع هذه العيون التي طالما تحجرت، ولتخشع هذه الجوارح التي طالما عصت، جاء ليقول لهذه العيون: صومي عن النظر إلى الحرام، جاء ليقول لهذه الألسن: صومي عن الغيبة، والنميمة، والكذب، والبهتان، جاء ليقول لهذه الجوارح: صومي عن العصيان، جاء ليقول لهذه البطون: صومي عن أكل الحرام، جاء ليقول لهذه الأيدي: صومي عن الرشوة، وسفك الدماء، وظلم العباد، جاء يدعونا جميعًا لجنة عرضها الأرض والسماوات.

فأين اللائذ بالجناب؟ أين المتعرض بالباب؟ أين الباكي على ما جنى؟ أين المستغفر لأمر قد دنا؟ هلموا جميعًا فالله عز وجل يناديكم ويقول لكم: ﴿قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِن رَّحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ﴾ (الزمر: 53)

وأخرج الإمام أحمد والترمذي والبيهقي والحاكم من حديث أبي هريرة ﷺ أن النبي ﷺ قال:" إِذَا كَانَ أَوَّلُ لَيْلَةٍ مِنْ شَهْرِ رَمَضَانَ صُفِّدَتِ[1] الشَّيَاطِينُ وَمَرَدَةُ الْجِنِّ، وَغُلِّقَتْ أَبْوَابُ النَّارِ فَلَمْ

1- صفدت: بضم أوله وتشديد الفاء أي شُدَّت وأُوثقت بالأغلال، والأصفاد هي القيود، قال تعالى (مُقَرَّنِينَ فِي الأَصْفَادِ) أي مشدودين بعضهم ببعض في القيود والأغلال

يُفْتَحْ مِنْهَا بَابٌ، وَفُتِّحَتْ أَبْوَابُ الْجَنَّةِ[1] فَلَمْ يُغْلَقْ مِنْهَا بَابٌ، وَيُنَادِي مُنَادٍ كل ليلة: يَا بَاغِيَ الْخَيْرِ أَقْبِلْ، وَيَا بَاغِيَ الشَّرِّ أَقْصِرْ وللهِ عُتَقَاءُ مِنَ النَّارِ وَذَلِكَ كُلَّ لَيْلَةٍ ". (صحيح الجامع: 759)

فها هو منادي رب العالمين في هذا الشهر الكريم يناديك ويقول لك: يَا بَاغِيَ الْخَيْرِ أَقْبِلْ، وَيَا بَاغِيَ الشَّرِّ أَقْصِرْ. فهذه دعوة إلى التوبة والأوبة والرجوع إلى الله تعالى[2]:

فها هي التوبة في رمضان معروضة، ومواسم الطاعات مشهورة، فلئن أتعبتك المعاصي، وأثقلتك الذنوب، فاعلم أن لك ربًا يريد منك أن تتوب: ﴿ وَاللّهُ يُرِيدُ أَن يَتُوبَ عَلَيْكُمْ ﴾ (النساء:27) فرمضان فرصة كبيرة ومنَّة عظيمة لنصطلح مع الله عز وجل حتى يرضى عنا ويدخلنا جنته. قال تعالى: ﴿وَاللّهُ يَدْعُوَ إِلَى الْجَنَّةِ وَالْمَغْفِرَةِ بِإِذْنِهِ ﴾ (البقرة:221)

فإلى الذين ذلّت أقدامهم وسقطوا في ذل المعصية وظلوا فيها زمنًا طويلًا، ها هو موسم الطاعات وسوق الخيرات قد جاء بما فيه من المنح المباركات، فاغتنمه لتُضَاعَف لك فيه الحسنات، ويمحى عنك فيه السيئات، وترفع لك فيه الدرجات، ها هو شهر الصيام أقبل فلا تستحِ أن ترفع يديك إلى مولاك طالبًا العفو والغفران والعتق من النيران، وأن يدخلك الجنان.

واعلم أيها المذنب... أن هذه الأمة لكرامتها على الله جعل توبتها الندم والإقلاع، فهي أسرع قبولًا وأسهل تناولًا. فقد جاء في تفسير ابن المنذر: أن الصحابة–رضوان الله عليهم– كانوا مجتمعين عند ابن مسعود ﷺ فتذاكروا بني إسرائيل وما أعطاهم الله من فضائل، فقال عبد الله بن مسعود ﷺ: كان الرجل من بني إسرائيل إذا ما أذنب ذنبًا كتب ذنبه على باب داره، وكتب معه كفارة ذلك الذنب، ليغفر ذلك الذنب. أما أنتم فجعل الله مغفرة ذنوبكم قولًا تقولونه بألسنتكم. ثم تلا قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ إِذَا فَعَلُواْ فَاحِشَةً أَوْ ظَلَمُواْ أَنْفُسَهُمْ ذَكَرُواْ اللّهَ فَاسْتَغْفَرُواْ لِذُنُوبِهِمْ وَمَن يَغْفِرُ الذُّنُوبَ إِلاَّ اللّهُ وَلَمْ يُصِرُّواْ عَلَى مَا فَعَلُواْ وَهُمْ يَعْلَمُونَ (135) أُوْلَئِكَ جَزَآؤُهُم مَّغْفِرَةٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَجَنَّاتٌ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَنِعْمَ أَجْرُ الْعَامِلِينَ﴾ (آل عمران: 135، 136)

(النهاية في غريب الحديث لابن الأثير: 53/3)

1– وفي لفظ للبخاري" وفتحت أبواب السماء"، وعند مسلم بلفظ" وفتحت أبواب الرحمة".

2– هناك رسالة للمؤلف عن التوبة وهي ضمن سلسلة الكتاب الجامع للفضائل، فارجع إليها فضلًا لا أمرًا.

فقال عبد الله بن مسعود ﷺ:" والله ما أُحِبُّ أن لي الدنيا وما فيها بهذه الآية ".

وأخرج البخاري ومسلم من حديث ابن عباس–رضي الله عنهما–: أن ناسًا من أهل الشرك كانوا قد قتلوا وأكثروا، وزنُوا وأكثروا، فأتوا محمدًا ﷺ فقالوا: إن الذى تقول وتدعو إليه لحسن لو تخبرنا أن لما عملنا كفارة، فنزل قوله تعالى:﴿وَالَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ وَلَا يَقْتُلُونَ النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ وَلَا يَزْنُونَ وَمَن يَفْعَلْ ذَلِكَ يَلْقَ أَثَامًا (68)يُضَاعَفْ لَهُ الْعَذَابُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَيَخْلُدْ فِيهِ مُهَانًا (69)إِلَّا مَن تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ عَمَلًا صَالِحًا فَأُوْلَئِكَ يُبَدِّلُ اللَّهُ سَيِّئَاتِهِمْ حَسَنَاتٍ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾ (الفرقان: 68–70)

ونزل: ﴿قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَى أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِن رَّحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ﴾ (الزمر:53)

فقال ابن عباس –رضي الله عنهما–:" فما رأيت النبي ﷺ فرح بشيء كفرحه بهذه الآية ".

وصدق ربنا حيث قال: ﴿وَمَن يَعْمَلْ سُوءًا أَوْ يَظْلِمْ نَفْسَهُ ثُمَّ يَسْتَغْفِرِ اللّهَ يَجِدِ اللّهَ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾ (النساء:110)

ومن رحمته بنا أنه يبسط يده بالليل والنهار للمذنبين، وبابه دائمًا لا يغلق، ورحمته واسعة فيا له من إله رحيم، ورب كريم عظيم.

أخرج الإمام مسلم من حديث أبي موسى الأشعري ﷺ عن النبي ﷺ قال:" إن الله تعالى يبسط يده بالليل ليتوب مسيء النهار، ويبسط يده بالنهار ليتوب مسيء الليل حتى تطلع الشمس من مغربها"

أخرج الإمام أحمد من حديث أبي سعيد الخدري ﷺ عن النبي ﷺ قال:" قال إبليس: أي ربِّ! لا أزال أغوي بني آدم ما دامت أرواحهم في أجسادهم، فقال الله تعالى: لا أزال أغفر لهم ما استغفروني".

فما أوسع حلم الله على عباده، وما أعظم فضله وامتنانه، فلنتوجه إلى الله تعالى ونتوب إليه، فهو غافر الذنب وقابل التوب. وهو القائل سبحانه: ﴿وَإِنِّي لَغَفَّارٌ لِّمَن تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا ثُمَّ اهْتَدَى ﴾ (طه:82)

وقال تعالى: ﴿أَلَمْ يَعْلَمُواْ أَنَّ اللّهَ هُوَ يَقْبَلُ التَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِ وَيَأْخُذُ الصَّدَقَاتِ وَأَنَّ اللّهَ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ ﴾ (التوبة:104)

فالذنوب مهما عظمت فعفو الله أعظم، ومن ظنَّ أن ذنبًا لا يتسع لعفو الله فقد ظن بربه ظن السوء.

وقد قَالَ تَعَالَى في الحديث القدسي:" يَا ابْنَ آدَمَ إِنَّكَ مَا دَعَوْتَنِي وَرَجَوْتَنِي غَفَرْتُ لَكَ عَلَى مَا كَانَ فِيكَ وَلَا أُبَالِي، يَا ابْنَ آدَمَ لَوْ بَلَغَتْ ذُنُوبُكَ عَنَانَ السَّمَاءِ ثُمَّ اسْتَغْفَرْتَنِي غَفَرْتُ لَكَ، وَلَا أُبَالِي، يَا ابْنَ آدَمَ إِنَّكَ لَوْ أَتَيْتَنِي بِقُرَابِ الأَرْضِ خَطَايَا ثُمَّ لَقِيتَنِي لَا تُشْرِكُ بِي شَيْئًا لَأَتَيْتُكَ بِقُرَابِهَا مَغْفِرَةً ".

(أخرجه الترمذي عَن أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ ﷺ) (صحيح الجامع:4338)

فهيا أخي الحبيب بادر بالتوبة؛ فالفرصة متاحة، ووسائل الهدى متوفرة، وأعوان الخير كثر، وأبواب السماء مفتوحة، فهيا تب إلى الله وارجع إليه قبل أن يأتيك الموت ويغلق دونك باب التوبة.

قال تعالى: ﴿إِنَّمَا التَّوْبَةُ عَلَى اللهِ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السُّوءَ بِجَهَالَةٍ ثُمَّ يَتُوبُونَ مِن قَرِيبٍ فَأُوْلَئِكَ يَتُوبُ اللهُ عَلَيْهِمْ وَكَانَ اللهُ عَلِيمًا حَكِيمًا(17) وَلَيْسَتِ التَّوْبَةُ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ حَتَّى إِذَا حَضَرَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ قَالَ إِنِّي تُبْتُ الآنَ وَلاَ الَّذِينَ يَمُوتُونَ وَهُمْ كُفَّارٌ أُوْلَئِكَ أَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴾ (النساء:17،18)

قال طلق بن حبيب–رحمه الله–:" أن حقوق الله تعالى أعظم من أن تقوم بها العباد، وإن نعم الله أكثر من أن تُحصى، ولكن اصبحوا تائبين، وامسوا تائبين ".

فاحمد الله أخي الحبيب على أن مد في عمرك لتدرك هذا الشهر العظيم المبارك، فكم غَيب الموت من صاحب، ووارى الثرى من حبيب.

وقد بكى أحد الصالحين عند موته، فسئل عن هذا فقال:" إنما أبكي عندما يصوم الصائمون ولستُ فيهم، ويُصلي المصلون ولستُ فيهم.

فكم من أناس كانوا يتمنون إدراك رمضان فلم يدركوه، ومنَّ الله عليك بنعمة الحياة حتى أدركت هذا الزمان المبارك. فجدَّ في التوبة وسارع إليها كما أمرك الله.

قال تعالى: ﴿وَسَارِعُواْ إِلَى مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا السَّمَاوَاتُ وَالأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ ﴾ (آل عمران:133)

وقال تعالى: ﴿سَابِقُوا إِلَى مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا كَعَرْضِ السَّمَاء وَالْأَرْضِ أُعِدَّتْ لِلَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ ذَلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ ﴾ (الحديد:21)

فهيا نستجيب لنداء رب العالمين... حيث قال في كتابه الكريم: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا تُوبُوا إِلَى اللَّهِ تَوْبَةً نَّصُوحًا عَسَى رَبُّكُمْ أَن يُكَفِّرَ عَنكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَيُدْخِلَكُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ﴾ (التحريم: 8)

قال عمر بن الخطاب وأبيّ بن كعب–رضي الله عنهما–:" التوبة النصوح: أن يتوب العبد من الذنب ثم لا يعود إليه، كما لا يعود اللبن إلى الضرع ".

وقال الحسن البصري–رحمه الله–:" التوبة النصوح: أن يكون العبد نادمًا على ما مضى، مجمعًا على ألا يعود فيه ". (انظر مدارج السالكين لابن القيم)

وقال ابن القيم–رحمه الله– كما في" مدارج السالكين:316/1":" والتوبة النصوح تتضمن ثلاثة أشياء: استغراق جميع الذنوب، وإجماع الندم والصدق، وتخليصها من الشوائب والعلل، وهي أكمل ما يكون من التوبة ".

فأول الطريق أن يرى الإنسان عظيم جرمه، وفداحة ذنبه وخطئه، فهذا يجعله يسارع إلى الخلاص والأوبة، ويبادر إلى التوبة. وقد قال النبي ﷺ:" إنَّ المُؤْمِنَ يَرَى ذُنُوبَهُ كَأنَّهُ قاعِدٌ تَحْتَ جَبَلٍ يَخافُ أنْ يَقَعَ عليه، وإنَّ الفاجِرَ يَرَى ذُنُوبَهُ كَذُبابٍ مَرَّ علَى أنْفِهِ فقالَ به هَكَذا، قالَ أبو شِهابٍ: بيَدِهِ فَوْقَ أنْفِهِ.

(أخرجه البخاري عن عبد الله بن مسعود ﷺ)

وهنا أتوجه للذين لا يعرفون شرف هذا الزمان، ويبارزون الله بالعصيان في شهر رمضان، أقول لهم: أنتم على خطر عظيم، إن لم تتوبوا وتعودوا إلى رب العالمين.

فقد مر بنا الحديث الذي أخرجه الترمذي والحاكم من حديث أبي هريرة ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ:" رَغِمَ أَنْفُ[1] رَجُلٍ ذُكِرْتُ عِنْدَهُ فَلَمْ يُصَلِّ عَلَيَّ، وَرَغِمَ أَنْفُ رَجُلٍ دَخَلَ عَلَيْهِ رَمَضَانُ فَانْسَلَخَ قَبْلَ أَنْ يُغْفَرَ لَهُ، وَرَغِمَ أَنْفُ رَجُلٍ أَدْرَكَ عِنْدَهُ أَبَوَاهُ الْكِبَرَ فَلَمْ يُدْخِلاهُ الْجَنَّةَ ". (صحيح الجامع: 3510) (صحيح الترمذي: 3545)

1– رغم أنف: بالكسر، أي لصق أنفه بالرغام، أي: بالتراب، هذا هو الأصل ثم استعمل في الذُّل والعجز عن الانتصاف والانقياد على كره.

(النهاية في غريب الحديث لابن الأثير: 238/2).

وأخرجه ابن خزيمة وابن حبان عن جابر بن سمرة ﷺ قال: صعِد النَّبيُّ ﷺ المنبر، فقال: آمين، آمين، آمين، فلمَّا نزل سُئل عن ذلك، فقال: أتاني جبريلُ عليه السلام، فقال: رغِم أنفُ امرئٍ أدرك رمضانَ فلم يُغفرْ له، قُلْ: آمين، فقلتُ: آمين، ورغِم أنفُ امرئٍ ذُكِرتَ عنده فلم يُصلِّ عليك، قُلْ: آمين، فقلتُ: آمين، ورغِم أنفُ رجلٍ أدرك والدَيْه أو أحدَهما فلم يُغفرْ له، قُلْ: آمين، فقلتُ: آمين ". (صحيح الترغيب والترهيب: 996)

قل لي بالله عليك؛ كيف سيكون حال هذا الرجل الذي دعا عليه سيد الملائكة، وأَمَّنَ عليه سيد البشر؟

فمن حُرم المغفرة في شهر الغفران والعتق من النيران فهو المحروم، فليذرف على ما فرط دموع الأسى، وهيهات أن تُجدي الحسرة أو ينفع البكاء، بعد فوات الفرصة، وانقضاء المدة، وانتهاء السباق.

" فيامن ذنوبه كثيرة لا تعد، ووجه صحيفته بمخالفته قد أسود، كم يدعوك مولاك إلى الوصال وتأبى إلا الصد، أمَّا الموت فقد سعى نحوك وجدَّ، عزم أن يلحقك بالأب والجد، فاحذر الموت أن يأتي على المعاصي، فإنه إذا أتى أبى الرَّد ". (التبصرة لابن الجوزي:2/266)

فيا أيها العصاة... بادروا بالتوبة من الآن، واجعلوا من شهر رمضان نقطة تحول من الشرك إلى التوحيد، ومن الظلم إلى العدل، ومن الخيانة إلى الأمانة، ومن العقوق إلى البر، ومن القطيعة إلى الصلة، ومن الإساءة إلى الإحسان، ومن البدعة إلى السنة، ومن الكذب إلى الصدق، ومن مساوئ الأخلاق إلى مكارم الإخلاق، ومن أكل الحرام إلى أكل الحلال، ومن الفرقة إلى الاعتصام، ومن التهاجر إلى البدء بالسلام، ومن مجالس الغيبة والبهتان إلى مجالس العلم والقرآن. وأنتِ يا اختاه فرِّي إلى الله من التبرج والسفور إلى الحشمة والوقار، حتى لا تكونين من أهل النار، فقد أخرج الإمام مسلم من حديث أبي هريرة ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ:" صِنْفانِ مِن أهْلِ النَّارِ لَمْ أرَهُما.. ذكر منهما.. ونِساءٌ كاسِياتٌ عارِياتٌ..".

فهيا أخي الكريم... ما عليك إلا أن ترفع يدك إلى السماء في ذل وخشوع وتقول: يا رب هذه ناصيتي الكاذبة الخاطئة بين يديك، عبيدك سواي كثير وليس لي سيِّدٌ سواك، لا ملجأ ولا منجى منك إلا إليك، أسألك مسألة المسكين وأبتهل إليك ابتهال الخاضع الذليل، أدعوك دعاء الخائف الضرير سؤال من خضعت لك رقبته، ورغم لك أنفه، وفاضت لك عيناه، وذل لك

قلبه، أسألك بقوتك وضعفي، وبغناك عني وفقري إليك، أسألك بعزك وذلي، إلا غفرت لي ورحمتني.

قل كما قال أحدهم:

لبستُ ثوبَ الرَّجا والنّاسُ قد رقدُوا وبتُّ أشكو إلى مـولايَ ما أجـدُ
وقلـتُ: يا أملي فـي كـلِّ نائبـةٍ ومَـنْ عليه لكشفِ الضُرِّ أَعتمـدُ
أشكـو إليكَ أمـورًا أنتَ تعلمُهـا ما لي على حِمْلها صبرٌ ولا جلدُ
وقـد مـددتُ يدي بالذّلِّ مبتهـلًا إليكَ يا خـيرَ مـن مُدّتْ إليه يـدُ
فـلا تَـرُدَّنَّهـا يـا ربِّ خائبـةً فبحـرُ جـودِكِ يروي كلَّ من يَـرِدُ

قل يا رب:

أذنبت كـل ذنـوب لست أُنْكِرُهـا وقـد رجـوتك يـا ذا المَنِّ تغفرهـا
أرجـوك تغفرهـا في الحشر يا سيدي إذ كنت يـا أملي في الأرض تسترهـا

فإن تبت أخي الحبيب فأنا أحمل لك جملة من البشارات:

البشارة الأولى: إذا تبت توبة نصوحًا؛ فإن الله تعالى يفرح بتوبتك، وكفى بهذا شرفًا لك:

فقد أخرج الإمام مسلم من حديث أنس بن مالك ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ:" لَلَّهُ أَشَدُّ فَرَحًا بِتَوْبَةِ عَبْدِهِ حِينَ يَتُوبُ إِلَيْهِ، مِن أَحَدِكُمْ كانَ علَى رَاحِلَتِهِ بِأَرْضٍ فلاةٍ، فَانْفَلَتَتْ منه وَعَلَيْهَا طَعَامُهُ وَشَرَابُهُ، فأيِسَ منها، فأتَى شَجَرَةً، فَاضْطَجَعَ في ظِلِّهَا، قدْ أَيِسَ مِن رَاحِلَتِهِ، فَبيْنَا هو كَذلكَ إِذَا هو بِهَا، قَائِمَةً عِنْدَهُ، فأخَذَ بِخِطَامِهَا، ثُمَّ قالَ مِن شِدَّةِ الفَرَحِ: اللَّهُمَّ أَنْتَ عَبْدِي وَأَنَا رَبُّكَ، أَخْطَأَ مِن شِدَّةِ الفَرَحِ ".

قال ابن القيم–رحمه الله–:" ولم يجئ هذا الفرح في شيء من الطاعات سوى التوبة، ومعلوم أن لهذا الفرح تأثيرًا عظيمًا في حال التائب وقلبه، ومزية لا يعبر عنها ". اهـ

البشارة الثانية: التوبة النصوح سبيل للفوز بمحبة الله تعالى:

قال تعالى: ﴿إِنَّ اللهَ يُحِبُّ التَّوَّابِينَ وَيُحِبُّ الْمُتَطَهِّرِينَ﴾ (البقرة: 222)

وقوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ التَّوَّابِينَ وَيُحِبُّ الْمُتَطَهِّرِينَ﴾ والتواب صيغة مبالغة من تائب بمعنى راجع إلى ربه إذا زل وهفا. والمتطهر: هو الإنسان المتنزه عن الفواحش والأقذار. أي: إن الله– تبارك وتعالى– يحب عباده الذين يكثرون الرجوع إليه إذا ما ظلموا أنفسهم بسيئة من السيئات،

والذين يصونون أنفسهم وينزهونها عن المعاصي والآثام، ويرضى عنهم في الدنيا والآخرة. (التفسير الوسيط)

البشارة الثالثة: التوبة سبب للفلاح في الدنيا والآخرة:

قال تعالى: ﴿فَأَمَّا مَن تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَعَسَى أَن يَكُونَ مِنَ الْمُفْلِحِينَ ﴾ (القصص:67)

قال السعدي–رحمه الله– في تفسيره عند هذه الآية: ﴿فَأَمَّا مَنْ تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَعَسَى أَنْ يَكُونَ مِنَ الْمُفْلِحِينَ﴾ لما ذكر تعالى سؤال الخلق عن معبودهم وعن رسلهم، ذكر الطريق الذي ينجو به العبد من عقاب الله تعالى، وأنه لا نجاة إلا لمن اتصف بالتوبة من الشرك والمعاصي، وآمن بالله فعبده، وآمن برسله فصدقهم، وعمل صالحا متبعا فيه للرسل، ﴿فَعَسَى أَنْ يَكُونَ﴾ من جمع هذه الخصال ﴿مِنَ الْمُفْلِحِينَ﴾ الناجحين بالمطلوب، الناجين من المرهوب، فلا سبيل إلى الفلاح بدون هذه الأمور". اهـ

وقال تعالى: ﴿وَتُوبُوا إِلَى اللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَا الْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ (النور:31)

قال السعدي–رحمه الله– في تفسيره عند هذه الآية:" وقوله: ﴿وَتُوبُوا إِلَى اللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَ الْمُؤْمِنُونَ﴾ لأن المؤمن يدعوه إيمانه إلى التوبة ثم علق على ذلك الفلاح، فقال: ﴿لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ فلا سبيل إلى الفلاح إلا بالتوبة، وهي الرجوع مما يكرهه الله، ظاهرا وباطنا، إلى: ما يحبه ظاهرا وباطنا، ودل هذا، أن كل مؤمن محتاج إلى التوبة، لأن الله خاطب المؤمنين جميعا، وفيه الحث على الإخلاص بالتوبة في قوله: ﴿وَتُوبُوا إِلَى اللَّهِ﴾ أي: لا لمقصد غير وجهه، من سلامة من آفات الدنيا، أو رياء وسمعة، أو نحو ذلك من المقاصد الفاسدة ". اهـ

وقال ابن القيم–رحمه الله–:" فإذا أراد الله بعبده خيرًا فتح له من أبواب التوبة والندم والانكسار والذل والافتقار والاستعانة به وصدق اللجأ إليه ودوام التضرع والدعاء والتقرب إليه بما أمكن من الحسنات ما تكون تلك السيئة به رحمته، حتى يقول عدو الله: يا ليتني تركته ولم أوقعه. وهذا معنى قول بعض السلف: إن العبد ليعمل الذنب يدخل به الجنة، ويعمل الحسنة يدخل بها النار. قالوا: كيف؟ قال: يعمل الذنب فلا يزال نصب عينيه منه مشفقًا وجلًا باكيًا نادمًا مستحيًا من ربه تعالى ناكس الرأس بين يديه منكسر القلب له، فيكون ذلك الذنب أنفع له من طاعات كثيرة بما ترتب عليه من هذه الأمور التي بها سعادة العبد وفلاحه، حتى يكون

ذلك الذنب سبب دخوله الجنة. ويفعل الحسنة فلا يزال يمن بها على ربه ويتكبر بها ويرى نفسه ويعجب بها ويستطيل بها ويقول فعلت وفعلت، فيورثه من العجب والكبر والفخر والاستطالة ما يكون سبب هلاكه. فإذا أراد الله تعالى بهذا المسكين خيرًا ابتلاه بأمر يكسره به ويذل به عنقه ويصغر به نفسه عنده، وإن أراد به غير ذلك خلاه وعجبه وكبره، وهذا هو الخذلان الموجب لهلاكه. فإن العارفين كلهم مجمعون على أن التوفيق أن لا يكلك الله تعالى إلى نفسك، والخذلان أن يكلك الله تعالى إلى نفسك. فمن أراد الله به خيرًا فتح له باب الذل والانكسار، ودوام اللجأ إلى الله تعالى والافتقار إليه، ورؤية عيوب نفسه وجهلها وعدوانها، ومشاهدة فضل ربه وإحسانه ورحمته وجوده وبره وغناه وحمده".

البشارة الرابعة: التوبة والاستغفار سبب لسعة الرزق وزيادة في القوة:

قال هود عليه السلام لقومه: ﴿ وَيَا قَوْمِ اسْتَغْفِرُواْ رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُواْ إِلَيْهِ يُرْسِلِ السَّمَاء عَلَيْكُم مِّدْرَارًا وَيَزِدْكُمْ قُوَّةً إِلَى قُوَّتِكُمْ وَلاَ تَتَوَلَّوْاْ مُجْرِمِينَ﴾ (سورة هود:52)

وقال تعالى حكاية عن نوح عليه السلام: ﴿ فَقُلْتُ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ إِنَّهُ كَانَ غَفَّارًا (10) يُرْسِلِ السَّمَاء عَلَيْكُم مِّدْرَارًا (11) وَيُمْدِدْكُمْ بِأَمْوَالٍ وَبَنِينَ وَيَجْعَل لَّكُمْ جَنَّاتٍ وَيَجْعَل لَّكُمْ أَنْهَارًا﴾ (سورة نوح:10 – 12)

قال ابن كثير–رحمه الله– في تفسيره:260/8" معلقًا على هذه الآيات من سورة نوح:" أي: إذا تبتم إلى الله واستغفرتموه وأطعتموه، كثر الرزق عليكم، وأسقاكم من بركات السماء، وأنبت لكم من بركات الأرض، وأنبت لكم الزرع، وأدَرَّ لكم الضَّرْعَ، وأمدكم بأموال وبنين؛ أي: أعطاكم الأموال والأولاد، وجعل لكم جنات فيها أنواع الثمار، وخللها بالأنهار الجارية بينها ". اهـ

وقال تعالى: ﴿وَأَنِ اسْتَغْفِرُواْ رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُواْ إِلَيْهِ يُمَتِّعْكُم مَّتَاعًا حَسَنًا إِلَى أَجَلٍ مُّسَمًّى وَيُؤْتِ كُلَّ ذِي فَضْلٍ فَضْلَهُ وَإِن تَوَلَّوْاْ فَإِنِّيَ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ كَبِيرٍ﴾ (هود: 3)

قال السعدى–رحمه الله– في تفسيره عند هذه الآية:" وقوله: ﴿وَأَنِ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ﴾ عن ما صدر منكم من الذنوب ﴿ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ﴾ فيما تستقبلوه من أعماركم، بالرجوع إليه، بالإنابة والرجوع، عما يكرهه الله إلى ما يحبه ويرضاه، ثم ذكر ما يترتب على الاستغفار والتوبة فقال: ﴿يُمَتِّعْكُمْ مَتَاعًا حَسَنًا﴾ أي يعطيكم من رزقه، ما تتمتعون به، وتنتفعون ﴿إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى﴾ أي: إلى وقت وفاتكم ﴿وَيُؤْتِ﴾ منكم ﴿كُلَّ ذِي فَضْلٍ فَضْلَهُ﴾ أي يعطي أهل الإحسان والبر من فضله وبره، ما هو جزاء لإحسانهم، من حصول ما يحبون، ودفع ما يكرهونه. ﴿وَإِنْ تَوَلَّوْا﴾ عن ما دعوتكم إليه، بل أعرضتم عنه، وربما كذبتم به ﴿فَإِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ كَبِيرٍ﴾

وهو يوم القيامة الذي يجمع الله فيه الأولين والآخرين، فيجازيهم بأعمالهم، إن خيرا فخير، وإن شرًّا فشر ". اهـ

البشارة الخامسة: التوبة سبب لطهارة ونقاء القلب:

فقد أخرج الإمام أحمد والترمذي من حديث أبي هريرة ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ:" إنَّ العبدَ إذا أخطأ خطيئةً نكتَتْ في قلبِه نكتةً سوداءَ، فإن هو نزَع واستغفر صَقَلَتْ، فإن عاد زِيدَ فيها حتى تعلوَ قلبَه، فهو الرَّانُ الذي ذكر اللهُ تعالَى: ﴿كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَى قُلُوبِهِمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ (المطففين:14)".

(صحيح الترغيب والترهيب: 2469) (صحيح الجامع:1670)

– وفي رواية:" إنَّ المُؤمِنَ إذا أذنَبَ كانت نُكتَةٌ سَوداءُ في قَلبِه، فإنْ تابَ ونزَعَ واستغفَرَ؛ صُقِلَ قَلبُه، وإنْ زادَ زادَت، حتى يَعلُوَ قَلبَه ذاك الرَّانُ الَّذي ذكَرَ اللهُ عزَّ وجلَّ في القُرآنِ: ﴿كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَى قُلُوبِهِمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ (صحيح الترغيب والترهيب: 3141) (صحيح الترمذي: 3334)

البشارة السادسة: التوبة سبب للفوز برحمة الله تعالى:

قال نبي الله صالح عليه السلام لقومه: ﴿يَا قَوْمِ لِمَ تَسْتَعْجِلُونَ بِالسَّيِّئَةِ قَبْلَ الْحَسَنَةِ لَوْلَا تَسْتَغْفِرُونَ اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾

(النمل:46)

قال القرطبي–رحمه الله– في تفسيره:192/6عند هذه الآية":" وفي قوله تعالى: ﴿يَا قَوْمِ لِمَ تَسْتَعْجِلُونَ بِالسَّيِّئَةِ قَبْلَ الْحَسَنَةِ﴾ قال مجاهد:" بالعذاب قبل الرحمة[1]، المعنى لما تؤخرون الإيمان الذي يجلب إليكم الثواب، وتقدمون الكفر الذي يوجب العقاب، فكان الكفار يقولون لفرط الإنكار: ايتنا بالعذاب، وقيل: أي لم تفعلوا ما تستحقون به العقاب، لا أنهم التمسوا تعجيل العذاب ﴿لَوْلَا تَسْتَغْفِرُونَ اللَّهَ﴾ أي هلا تتوبون إلى الله من الشرك ﴿لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ لكي ترحموا ". اهـ

1– ورواه الطبري في تفسيره:(جامع البيان: 19 / 107).

البشارة السابعة: التوبة سبب للخروج من دائرة الظالمين:

قال تعالى: ﴿وَمَن لَّمْ يَتُبْ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾ (الحجرات:11)

قال ابن القيم–رحمه الله–:" ومنزل التوبة أول المنازل وأوسطها وآخرها فلا يفارقه العبد السالك ولا يزال فيه إلى الممات وإن ارتحل إلى منزل آخر ارتحل به واستصحبه معه ونزل به فالتوبة هي بداية العبد ونهايته وحاجته إليها في النهاية ضرورية كما أن حاجته إليها في البداية كذلك وقد قال تعالى: ﴿وَتُوبُوا إِلَى اللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَا الْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ وهذه الآية في سورة مدنية خاطب الله بها أهل الإيمان وخيار خلقه أن يتوبوا إليه بعد إيمانهم وصبرهم وهجرتهم وجهادهم ثم علق الفلاح بالتوبة تعليق المسبب بسببه وأتى بأداة (لعلّ) المشعرة بالترجي إيذانا بأنكم إذا تبتم كنتم على رجاء الفلاح فلا يرجو الفلاح إلا التائبون جعلنا الله منهم. ثم قال تعالى في آية أخرى: ﴿وَمَنْ لَمْ يَتُبْ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾ قسم اللهُ العبادَ إلى تائب وظالم، وما ثم قسم ثالث البته، وأوقع اسم الظالم على من لم يتب؛ ولا أظلم منه لجهله بربه، وبحقه، وبعيب نفسه، وآفات أعماله ". اهـ

البشارة الثامنة: إذا تبت توبة نصوحًا؛ كفر الله عنك سيئاتك:

قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا تُوبُوا إِلَى اللَّهِ تَوْبَةً نَّصُوحًا عَسَى رَبُّكُمْ أَن يُكَفِّرَ عَنكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَيُدْخِلَكُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ يَوْمَ لَا يُخْزِي اللَّهُ النَّبِيَّ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ نُورُهُمْ يَسْعَى بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَانِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا أَتْمِمْ لَنَا نُورَنَا وَاغْفِرْ لَنَا إِنَّكَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ (التحريم:8)

يقول ابن القيم–رحمه الله–:" إذا تاب العبد توبة نصوحًا صادقةً خالصةً أحرقت ما كان قبلها من السيئات، وأعادت عليه ثواب حسناته يُوَضِّحُ هذا أنَّ السيئاتِ والذنوب هي أمراضٌ قلبية، كما أن الحمَّى والأوجاع أمراضٌ بدنيةٌ، والمريضُ إذا عُوفي من مرضه عافية تامة عادت إليه قوته وأفضل منها، حتى كأنه لم يَضْعُفْ قط؛ فالقوةُ المتقدِّمة بمنزلة الحسنات، والمرضُ بمنزلة الذنوب، والصحةُ والعافيةُ بمنزلة التوبة سواء بسواء. وكما أن من المرضى من لا تعود إليه صحته أبدًا؛ لضعف عافيته، ومنهم من تعود صحته كما كانت؛ لتقاوم الأسباب وتدافعها، وعَوْدِ البدن إلى كماله الأول، ومنهم من يعود أصحَّ مما كان وأقوى وأنشط؛ لقوة أسباب العافية وقهرها وغلبتها لأسباب الضعف والمرض، حتى ربما كان مرض هذا سببًا لعافيته، كما قال الشاعر:

لعل عَتْبَك محمودٌ عواقِبُه وربما صَحَّت الأجسام بالعِلَل

فهكذا العبد بعد التوبة على هذه المنازل الثلاث، والله الموفق، لا إله غيره، ولا رب سواه ". اهـ (الوابل الصيب: 1/ 24)

– وأخرج الطبراني في الكبير والبيهقي في الشعب والحاكم في المستدرك من حديث عقبة بن عامر الجهني ﷺ أنَّ رَجُلًا أتى رسولَ اللهِ ﷺ فقالَ: يا رسولَ اللهِ، أحَدُنا يُذنِبُ، قالَ: يُكتَبُ عليهِ، قالَ: ثمَّ يَستغْفِرُ منه ويَتوبُ؟ قالَ: يُغفَرُ له ويُتابُ عليه، قالَ: فيَعودُ فيُذْنِبُ؟ قالَ: يُكْتَبُ عليهِ، ولا يَمَلُّ اللهُ حتَّى تَمَلُّوا ". (قال الهيثمي في المجمع: إسناده حسن)

– وأخرج البيهقي في شعب الإيمان عن عبيد بن عمر في قوله تعالى:﴿ إِن تَكُونُواْ صَالِحِينَ فَإِنَّهُ كَانَ لِلأَوَّابِينَ غَفُورًا ﴾ (سورة الإسراء:25) قال:" هو الذي يذنب ثم يتوب، ثم يذنب ثم يتوب، ثم يذنب ثم يتوب ".

– وقد مر بنا الحديث الذي أخرجه البخاري ومسلم من حديث أبي هريرة ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ:

" أَذْنَبَ عَبْدٌ ذَنْبًا، فَقالَ: اللَّهُمَّ اغْفِرْ لي ذَنْبِي، فَقالَ الله تَبارَكَ وَتَعَالَى: أَذْنَبَ عَبْدِي ذَنْبًا، فَعَلِمَ أنَّ له رَبًّا يَغْفِرُ الذَّنْبَ، وَيَأْخُذُ بالذَّنْبِ، ثُمَّ عَادَ فأذْنَبَ، فَقالَ: أَيْ رَبِّ اغْفِرْ لي ذَنْبِي، فَقالَ تَبَارَكَ وَتَعَالَى: عَبْدِي أَذْنَبَ ذَنْبًا، فَعَلِمَ أنَّ له رَبًّا يَغْفِرُ الذَّنْبَ، وَيَأْخُذُ بالذَّنْبِ، ثُمَّ عَادَ فأذْنَبَ فَقالَ: أَيْ رَبِّ اغْفِرْ لي ذَنْبِي، فَقالَ تَبَارَكَ وَتَعَالَى: أَذْنَبَ عَبْدِي ذَنْبًا، فَعَلِمَ أنَّ له رَبًّا يَغْفِرُ الذَّنْبَ، وَيَأْخُذُ بالذَّنْبِ، اعْمَلْ ما شِئْتَ فقَدْ غَفَرْتُ لَكَ ". أي: ما دمت تائبًا أواها منيبًا.

قال المنذري–رحمه الله–:" وفي قوله:" فَلْيَعْمَلْ ما شاءَ" معناه والله أعلم: أنه ما دام كلما أذنب ذنبًا استغفر الله وتاب منه، ولم يعد إليه بدليل قوله: ثم أذنب ذنبًا آخر، فليفعل إذا كان هذا دأبه ما شاء، لأنه كلما أذنب كانت توبته واستغفاره كفارة لذنبه فلا يضره، لا أنه يذنب الذنب فيستغفر منه بلسانه من غير إقلاع ثم يعاوده فإن هذه توبة الكاذبين ". اهـ

البشارة التاسعة: يبدل الله سيئاتك حسنات:

قال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ وَلَا يَقْتُلُونَ النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ وَلَا يَزْنُونَ وَمَن يَفْعَلْ ذَلِكَ يَلْقَ أَثَامًا (68)يُضَاعَفْ لَهُ الْعَذَابُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَيَخْلُدْ فِيهِ مُهَانًا (69)إِلَّا مَن تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ عَمَلًا صَالِحًا فَأُوْلَئِكَ يُبَدِّلُ اللَّهُ سَيِّئَاتِهِمْ حَسَنَاتٍ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾ (الفرقان: 68–70)

البشارة العاشرة: إذا تبت توبة نصوحًا؛ تدعو لك حملة العرش:

قال تعالى: ﴿الَّذِينَ يَحْمِلُونَ الْعَرْشَ وَمَنْ حَوْلَهُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيُؤْمِنُونَ بِهِ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ آمَنُوا رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَيْءٍ رَّحْمَةً وَعِلْمًا فَاغْفِرْ لِلَّذِينَ تَابُوا وَاتَّبَعُوا سَبِيلَكَ وَقِهِمْ عَذَابَ الْجَحِيمِ(7) رَبَّنَا وَأَدْخِلْهُمْ جَنَّاتِ عَدْنٍ الَّتِي وَعَدتَّهُم وَمَن صَلَحَ مِنْ آبَائِهِمْ وَأَزْوَاجِهِمْ وَذُرِّيَّاتِهِمْ إِنَّكَ أَنتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ(8) وَقِهِمُ السَّيِّئَاتِ وَمَن تَقِ السَّيِّئَاتِ يَوْمَئِذٍ فَقَدْ رَحِمْتَهُ وَذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴾

(غافر: 7–9)

جعلني الله وإياكم ممن إذا زل تاب، وأن يرزقنا توبة نصوحًا قبل الممات، إنه هو التواب الرحيم الرحمن.

أخي الحبيب... عليك بعد التوبة بالعزم الصادق، والهمة العالية على تعمير رمضان بكل ما تستطيع من عمل صالح. قال تعالى: ﴿طَاعَةٌ وَقَوْلٌ مَّعْرُوفٌ فَإِذَا عَزَمَ الْأَمْرُ فَلَوْ صَدَقُوا اللَّهَ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ﴾ (سورة محمد: 21)

وقال تعالى: ﴿وَلَوْ أَرَادُواْ الْخُرُوجَ لأَعَدُّواْ لَهُ عُدَّةً﴾ (التوبة: 46)

فالمكارم منوطة بالمكاره، والخير لا ينال إلا بحظ من المشقة، ولا يعبر إليه إلا على جسر من التعب.

وقد قيل للربيع بن خثيم– وكان مجتهدًا في العبادة– لو أرحت نفسك؟ فقال: راحتها أريد. (يقصد أن ما يفعله في الدنيا من طاعة وعبادة سيكون سببًا في راحته وسعادته يوم القيامة؛ يوم الحسرة والندامة)

وها هو شابٌ يُدعى دينار العيَّار–رحمه الله– كان مسرفًا على نفسه، وكان له أُمٌّ تعظه فلا يتعظ، فمر في يوم من الأيام بمقبرة وقد خرجت منها العظام، فتذكر مصيره، وتذكر نهايته، وتذكر أنه على الله قادم، فأخذ عظْمًا نخرًا في يده ففتته، ثم قال:" ويحك يا نفس، كأني بك غدًا قد صار

عظمك رفاتًا، وجسمك ترابًا، وما زلت منكبَّةً على المعاصي واللذائذ والشهوات"، ثم ندم وعزم على التوبة. ورفع رأسه للسماء قائلًا: " إلهي ألقيت إليك مقاليد أمري، فاقبلني واسترني يا أرحم الراحمين"، ثم رجع إلى أمه متغير اللون، منكسر القلب، فكان إذا جنَّ الليلُ أخذ في القيام والبكاء، وأخذ في النحيب وهو يقول:" يا دينار ألك قوة على النار؟ كيف تعرضت لغضب الجبار؟"، فجعل يقوم الليل، ويصوم النهار، فرفقت به أُمه، فقالت:" يا بني ارفق بنفسك قليلًا"، فقال:" يا أماه! دعيني أتعب قليلًا لعلي أرتاح طويلًا، يا أماه إن لي موقفًا بين يدي الله، ولا أدري إلى ظل ظليل، أم إلى شر مقيل؟ قالت: "يا بني أكثرت من تعب نفسك؟"، قال:" يا أماه! بل راحتها أريد، بل راحتها أريد ".

وصدق القائل حيث قال: من أراد الراحة ترك الراحة.

وسُئِل الإمام أحمد بن حنبل–رحمه الله–: متى الرَّاحةُ يا إمام؟ فقال:" عند أوّل قَدَمٍ تضُعها في الجنّة ". (المقصد الأرشد:2/398)

ونيل الدُّر من قاع البحر لا يأتي إلا بعد معاناة الشدائد.

ومن يتهيب صعود الجبال يعش أبَدَ الدهر بين الحفرْ.

يقول المتنبي–رحمه الله–:

عَلى قَدرِ أَهلِ العَزمِ تَأتي العَزائِمُ وَتَأتي عَلى قَـــدرِ الكِرامِ المَكــارِمُ

وَتَعظُمُ في عَينِ الصَغيرِ صِغارُها وَتَصغُرُ في عَينِ العَظيمِ العَظائِمُ

فرمضان مضمار سباق شعاره: ﴿وَسَارِعُواْ إِلَى مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا السَّمَاوَاتُ وَالأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ ﴾ (آل عمران:133)

فليكن شعارك في رمضان:" لا يسبقني إلى الله أحد ".

فليكن شعارك في رمضان:" ليرين الله ما أفعل ".

فليكن شعارك في رمضان: ﴿وَعَجِلْتُ إِلَيْكَ رَبِّ لِتَرْضَى﴾ (طه:84)

فالسعيد من يزرع في يومه ما يلقاه غدًا في قبره، وبين يدي ربه. فبادر أخي الحبيب في رمضان باغتنام الأوقات، والإكثار من الطاعات، والبعد عن المنهيات، حتى يرضى عنك رب الأرض والسموات.

تَـزَوَّدْ مِـن الدنيـا بِسَاعَتِكَ التي ظفِرتَ بها ما لم تَعُقْكَ العَوائِقُ
فلا يومُكَ الماضِي عليكَ بِعَائِدٍ ولا يَومُـكَ الآتِي بِـهِ أَنْتَ وَاثِـقٌ

وبعد...

فهذا آخر ما تيسَّر جمعه في هذه الرسالة.

وأسأل الله– تعالى– أن يكتب لها القبول، وأن يتقبَّلها منّي بقبول حسن، كما أسأله سبحانه وتعالى أن ينفع بها مؤلفها وقارئها، ومَن أعان على إخراجها ونشرها.....إنه ولي ذلك والقادر عليه.

هذا وما كان فيها من صواب فمن الله وحده، وما كان من سهو أو خطأ أو نسيان فمنِّي ومن الشيطان، والله ورسوله منه براء، وهذا شأن أي عمل بشري فإنه يعتريه الخطأ والصواب، فإن كان صوابًا فادعُ لي بالقبول والتوفيق، وإن كان ثَمَّ خطأ فاستغفر لي:

وإن وجدت العيب فسد الخللا جلّ من لا عيب فيه وعلا

فاللهم اجعل عملي كله صالحًا ولوجهك خالصًا، ولا تجعل لأحد فيه نصيبًا

والحمد لله الذي بنعمته تتم الصالحات.

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين، وصلّى الله على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

هذا والله – تعالى– أعلى وأعلم.

سبحانك اللهم وبحمدك، أشهد أن لا إله إلا أنت، أستغفرك وأتوب إليك

المحتويات

تمهيد 2

مقدمة: 3

البشارة الأولى: إذا تبت توبة نصوحًا؛ فإن الله تعالى يفرح بتوبتك، وكفى بهذا شرفًا لك:
..... 25

البشارة الثانية: التوبة النصوح سبيل للفوز بمحبة الله تعالى: 25

البشارة الثالثة: التوبة سبب للفلاح في الدنيا والآخرة: 26

البشارة الرابعة: التوبة والاستغفار سبب لسعة الرزق وزيادة في القوة: 27

البشارة الخامسة: التوبة سبب لطهارة ونقاء القلب: 28

البشارة السادسة: التوبة سبب للفوز برحمة الله تعالى: 28

البشارة السابعة: التوبة سبب للخروج من دائرة الظالمين: 29

البشارة الثامنة: إذا تبت توبة نصوحًا؛ كفر الله عنك سيئاتك: 29

البشارة التاسعة: يبدل الله سيئاتك حسنات: 31

البشارة العاشرة: إذا تبت توبة نصوحًا؛ تدعو لك حملة العرش: 31